الجزء الرابع

أمريكا والنظام

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الخامس عشر
الحماس المنطقى

عندما أطلق آلان جرينسبان رئيس الاحتياطى الفيدرالى تعليقه الشهير فى مطلع عام 1997 وحذر فيه المستثمرين فى سوق الأوراق المالية الأمريكية من «الحماس غير المنطقى» بسبب الطريقة التى كانوا يدفعون بها أسعار أسهمهم نحو الارتفاع على نحو يتجاوز أى حسابات معقولة للأسعار ـ مقابل الأرباح، كتبت عاموداً على صورة رسالة إلى جرينسبان، وكأنه طبيب استشارى يعمل بإحدى الصحف. بدأت الرسالة على النحو التالى:«عزيزى دكتور جرينسبان، إننى أشكو من مشكلة رهيبة. إننى أشعر بحماس غير منطقى إزاء سوق الأوراق المالية الأمريكية ولكننى لا أستطيع أن آلفه.

أعلم أنك قلت إن الحماس غير المنطقى مضر بصحتى، ولقد جرّبت كل شىء: التنويم المغناطيسى. الڤاليوم. البيع على المكشوف، بل إننى أعدت قراءة أحاديثك التى ألقيتها منذ عام 1987 . ولكن لم يفدنى شىء فيها. ففى كل مرة أذهب إلى أوروبا، أو أزور اليابان، فإننى أعود للوطن وأنا متلهف على استثمار المزيد فى السوق الأمريكية. أرجوك، أرجوك، ساعدنى. المخلص، السيد متشبع إى. بالاستثمار» .

مضيت قائلاً له إننى لا أعرف ما هو المستوى السليم الذى يجب أن تكون عليه سوق الأوراق المالية الأمريكية، وإننى كنت أعتقد أنه إذا لم تواصل أمريكا القيام بالأشياء الأساسية لزيادة الإنتاجية وأن تواصل المحافظة على انخفاض معدلات الفائدة

والتضخم فسوف تأخذ سوق الأوراق المالية فى الانخفاض تماماً مثلما أخذت فى الارتفاع. ولكن النقطة التى كنت أريد إبرازها هى أنه إذا حدث بعض الاندفاع فى الأسواق الأمريكية فلن يكون مرد ذلك فقط إلى أن هناك الكثير من «الحماس غير المنطقى» للاقتصاد الأمريكى، وإنما مرد ذلك أيضاً إلى وجود بعض الحماس المنطقى لأمريكا.

وبما أننى أمضيت الكثير من وقتى فى الخارج وبعيداً عن وول ستريت ـ حيث كنت أنظر إلى بلادى من الخارج ـ فإننى معرض بصورة دائمة للحماس المنطقى لأمريكا فى باقى العالم . وقد استند هذا الحماس المنطقى إلى المنطق التالى: إنك إذا نظرت إلى العولمة على أنها النظام الدولى السائد اليوم، ونظرت إلى الصفات التى تحتاجها الشركات والدول على السواء لكى تحقق الازدهار فى هذا النظام، فسوف تخلص إلى أن أمريكا لديها أصول أكثر وخصوم أقل، فيما يتعلق بهذا النظام، من أية دولة كبرى أخرى. وهذا هو ما أسميه الحماس المنطقى. إنه الحدس السائد بين المستثمرين العالميين بأنه فى حين ما زالت كثير من الدول فى أوروبا وآسيا تحاول أن تكيّف مجتمعاتها مع العولمة، وفى حين يقف بعضها بالكاد على خط البداية، فقد انتهى أنكل سام بالفعل من أول دورة له حول المضمار بأقصى سرعة.

وثمة طريقة مفيدة لتحليل هذا الحماس المنطقى تتمثل فى طرح السؤال التالى: لو أنك جئت قبل مائة عام من الآن إلى مهندس جغرافى ملهم وقلت له إنه فى عام 2000 سوف يعرف العالم بنظام يطلق عليه اسم «العولمة»، فما هو نوع البلد الذى سيقوم بتصميمه لكى ينافس ويفوز فى ذلك العالم؟ الإجابة هى أنه كان قد يصمم شيئاً يشبه إلى حد كبير الولايات المتحدة الأمريكية. وإليك ما أقصده:

قبل كل شىء. إنه قد يصمم دولة توجد فى موقع جغرافى نموذجى من حيث القدرة على المنافسة. بمعنى، أنه قد يصمم دولة تطل على كل من المحيطين الأطلنطى

والهادى، بحيث تنظر بارتياح من كلا الاتجاهين ، وفى الوقت نفسه تكون متصلة بكتلة من اليابسة بكل من كندا وأمريكا اللاتينية، حتى يتسنى لها التفاعل بسهولة مع كل الأسواق الرئيسية فى العالم ـ آسيا وأوروبا والأمريكتين. وهذه كلها ستكون فى متناول اليد.

قد يصمم دولة تتمتع بتنوع سكانى متعدد الثقافات ومتعدد الإثنيات (العرقيات) ومتعدد اللغات له ارتباطات طبيعية بكل القارات ، ولكن هذه الدولة تكون فى الوقت نفسه مرتبطة إلى بعضها بعض بلغة واحدة ـ هى الإنجليزية ـ التى قد تكون أيضاً هى اللغة المسيطرة للإنترنت. كما أنه قد ينعم على هذه الدولة بخمسة اقتصادات إقليمية مختلفة على الأقل تكون مرتبطة معاً بعملة واحدة، هى الدولار، الذى قد يكون هو أيضاً عملة الاحتياطى لبقية دول العالم. فوجود دولة واحدة بها عدة اقتصادات إقليمية مختلفة يعتبر ميزة عظيمة لأنه عندما يحدث هبوط فى أحد الأقاليم، فقد يحدث انتعاش كبير فى الإقليم الآخر، مما يساعد على التخفيف من حدة الصعود والهبوط فى دورة الأعمال التجارية. قد يكون كل ذلك من العوامل المساعدة.

وقد يصمم بلداً له أسواق شديدة التنوع والابتكار ورأس المال الكفء، تعتبر فيه الرأسمالية المغامرة فناً نبيلاً ومقداماً، بحيث يستطيع أى إنسان عنده اختراع معقول (أو حتى سخيف) فى بدروم أو جراج منزله أن يجد رأسمالياً مغامراً فى مكان ما يقدم له الدعم. وهذا شىء لطيف. ذلك لأنك عندما تتحدث عن السرعة فلا يوجد من هو أسرع من أسواق رأس المال الأمريكية فى إلقاء الأموال إلى الأفكار الجديدة. فإذا قارنت بين قائمة لأكبر خمس وعشرين شركة فى أوروبا قبل خمسة وعشرين عاماً بقائمة لأكبر خمس وعشرين شركة أوروبية اليوم فسوف تجد القائمتين متطابقتين تقريباً. ولكنك إذا أخذت قائمة بأكبر خمس وعشرين شركة فى أمريكا منذ خمسة وعشرين عاماً وقارنتها بقائمة بأكبر خمس وعشرين شركة أمريكية الآن فسوف تجد أن

معظم الشركات مختلفة. نعم، لم تكن أسواق المال الأمريكية، بسعيها المتواصل إلى الأرباح قصيرة الأجل والمكاسب ربع السنوية، لتسمح غالباً للشركات أن « تبدد الأموال» بالتركيز على النمو طويل الأجل. هذا صحيح. ولكن هذه الأسواق ذاتها سوف تمنح شخصاً ما لديه فكرة تافهة 50 ألف دولار فى لحظة فى محاولة ليجعل منها جهاز آبل كمبيوتر التالى. وفى ماساشوسيتس وحدها صناعة لرأس المال المغامر تفوق ما فى أوروبا بأسرها. إن أصحاب رأس المال المغامر مهمون جداً فى هذه الأيام وهذا العصر، ليس فقط باعتبارهم مصدراً للأموال. إن أفضلهم يقدم خبرة حقيقية للشركات المبتدئة. فهم يرون الكثير منها ويفهمون المراحل التى يجب على الشركات أن تمر بها لكى تنمو، ويستطيعون مساعدتها فى اجتياز هذه المراحل، وهو أمر له أهمية الأموال المطلوبة للبدء فى أى مشروع جديد.

ومما لا شك فيه أن مهندسنا الجغرافى قد يصمم دولة يوجد بها أكثر البيئات القانونية والتنظيمية أمانة فى العالم. ويستطيع المستثمرون المحليون والأجانب على السواء فى هذه الدولة أن يعتمدوا دائماً على وجود حلبة لعب مستوية إلى حد معقول، وبها قدر قليل نسبياً من الفساد، وقدر كبير من الضمانات القانونية لأى أجنبى يرغب فى الاستثمار ثم الخروج بأرباحه فى أى وقت، وسيادة القانون التى تمكن الأسواق والعقود التجارية من العمل وتحمى وتشجع الابتكار بحماية الاختراع. إن أسواق المال فى الولايات المتحدة اليوم ليست فقط أكثر كفاءة من أى دولة أخرى، ولكنها أيضاً أكثرها شفافية. ولن تتحمل أسواق الأوراق المالية فى الولايات المتحدة ببساطة السرية، ومن ثم، يجب على كل شركة مسجلة أن تقدم فى الأوقات المحددة تقارير الأرباح مع بياناتها المالية المراجعة محاسبياً بانتظام، بحيث يكون من السهل رصد سوء الإدارة أو سوء التخصيص للموارد وإنزال العقاب بها.

وقد يصمم دولة لها نظام من قوانين الإفلاس والمحاكم يشجع بالفعل أولئك الذين يخفقون فى مشاريعهم التجارية على إعلان إفلاسهم ثم معاودة المحاولة من جديد وربما يخفقون من جديد، فيعلنون إفلاسهم مرة أخرى، ثم يحاولون أيضاً من جديد، وذلك قبل أن يتحقق لهم النجاح ويبدأون فى تأسيس شركة Amazon.com التالية ـ وذلك دون أن يحملوا وصمة إفلاساتهم الأولى طوال حياتهم. يقول جون دوير صاحب رأس المال المغامر البارز إنه، فى وادى السيليكون،« لا بأس من الإخفاق، بل قد يكون من المهم لك فى الواقع أن تكون قد أخفقت من قبل بأموال شخص آخر» . ففى وادى السيليكون يعتبرون الإفلاس ثمناً ضرورياً وحتمياً للابتكار، وهذا الموقف يشجع الناس على المجازفة. إنك إذا لم تخفق فلن تستطيع أن تبدأ. لقد أسس هارى سال أحد أنجح نظم البرمجيات التشخيصية فى وادى السيليكون، بعد أن شارك فى عدد من المشروعات المبتدئة التى انهارت من أساسها، وقد قال لى ذات مرة، ونحن نحتسى القهوة فى پالو آلتو: «إن وجهة النظر السائدة هنا هى أنك تزداد صلابة وحكمة عندما تخفق. وهذا هو السبب فى أن الناس هنا حين يخفقون فى محاولتهم الأولى، يصبح من السهل عليهم جمع الأموال فى المرة التالية من هنا وهناك. يقول الناس، 'أوه، هل أفلس فى أول مشروع له؟ أراهن أنه تعلم شيئاً من ذلك، ولذلك فسوف أسانده بالمال مرة أخرى' » .

أما فى أوروبا فيعتبر الإفلاس وصمة مدى الحياة. فمهما حدث لك، لا تعلن إفلاسك فى ألمانيا؛ فسوف تحمل أنت وأولادك وأحفادك وصمة قابيل إلى الأبد فى أعين المجتمع الألمانى. وإذا تحتم عليك إعلان الإفلاس فى ألمانيا، فمن الأفضل لك أن ترحل عن البلاد.(وسوف يفتحون لك أذرعهم مرحبين فى پالو آلتو» .

وبالنسبة لهذا الموضوع، فقد يصمم مهندسنا الجغرافى بلا شك دولة مستعدة استعداداً طيباً لقبول مهاجرين جدد؛ بحيث يستطيع أى إنسان أن يأتى إلى سواحلها

وأن يُعامل دستورياً على قدم المساواة مع أى إنسان آخر، مما يمكن هذه الدولة باستمرار من سحب أفضل العقول فى العالم والجمع بينهم فى شركاتها ومراكزها الطبية وجامعاتها. إن ثلث العلماء والمهندسين تقريباً الموجودين اليوم فى وادى السيليكون من المهاجرين المولودين فى دول أجنبية، الذين يحدثون عندئذ تغييراً حاداً فى قيم وادى السيليكون ومنتجاته ثم ينشرونها فى أنحاء العالم. لقد جاء فى بحث أنالى ساكسينيان، الخبيرة فى الشئون المدنية بجامعة بيركلى بولاية كاليفورنيا، الذى أجرته لمعهد السياسات العامة فى كاليفورنيا إنه فى عام 1996، كانت 1786 شركة للتكنولوچيا فى وادى السيليكون، تصل مبيعاتها إلى 12.6 مليار دولار، ويصل عدد العاملين فيها إلى 64 ألف عامل، تخضع لإدارة مديرين تنفيذيين من المهاجرين الهنود أو الصينيين فقط. لقد أسس دونالد رايس الرئيس السابق لشركة تيليداين شركة للتكنولوچيا الحيوية، اسمها يوروچنيسيز ، فى عام 1997 لإنتاج أدوية لعلاج مشكلات البروستاتا. وقد اتخذ من سانتا مونيكا بكاليفورنيا مقراً لشركته. وصف لى فى يوم من الأيام العاملين لديه، بقوله: «لدينا تسعة عشر عاملاً. ثلاثة منهم من مواليد ڤيتنام، وهم عالمان وإدارى؛ واثنان من مواليد كندا، وهما عالمان؛ وواحد من مواليد ألمانيا، وهو عالم؛ وواحد من مواليد پيرو، وهو عالم؛ وواحد من مواليد ماليزيا وهوعالم؛ وواحد من مواليد الصين، وهو عالم؛ وواحد من إيران، وهوعالم؛ وواحد من الهند، وهو عالم. أما الباقون فهم أمريكيون بالمولد. ولا يمكن أن أتصور دولة أخرى فى العالم تستطيع أن تجمع فيها بين مثل هذا الفريق» . ذلك أكيد. هل علمت بشخص استطاع مؤخراً أن يصبح مواطناً يابانياً؟ وماذا عن السويسريين؟ فلكى تكون يابانياً لا بد لك أن تكون من مواليد اليابان. ولكى تكون سويسرياً يجب تكون من مواليد سويسرا. ولكن لكى تكون أمريكياً فما عليك إلا أن ترغب فقط فى أن تكون أمريكياً. وذلك لا يعنى أننا نسمح بالدخول لكل من يرغب فى أن يكون أمريكياً، ولكن عندما تكون المواطنة

مسألة قانونية وليست عرقية أو عنصرية أو وطنية، فإن ذلك يجعل الأمر أسهل كثيراً على البلد لكى يمتص الموهبة الجديدة. ويحب أحد أصدقائى فى وادى السيليكون أن يقول فى ذلك: «إننى لا أخاف من اليابان أو الدول الآسيوية الأخرى. فالآسيويون منا سوف يهزمون الآسيويين منهم فى أى يوم».

كلما زاد عدد عمال المعرفة الذين تستطيع جذبهم إلى شواطئ بلادك، زاد نجاحك. وفى حالة أمريكا، أقول اسع إلى جلب هذه النوعية من الناس، ولا تقتصر على جلب الأغنياء وأصحاب المشروعات المتعلمين. إننى لن أرفض قط دخول بحار هاييتى واحد. فالإنسان الذى لديه الذكاء والطاقة ويستطيع بهما أن يبنى زورقاً من علب اللبن الكارتون ثم يبحر به عبر الأطلنطى ليصل إلى شواطئ أمريكا إنما هو من أرغب فى أن يكون مهاجراً لدى. يقول تى. جى. رودجرز رئيس شركة سايبريس سيميكوندا كتور لأشباه الموصلات فى هذا الصدد وهو يشكو من القيود التى فرضها الكونجرس على عدد تأشيرات الدخول للعمل المؤقت المخصصة للمهندسين الأجانب : «فى عصر المعلومات سوف يتحدد مصير الفائزين والخاسرين بقوة العقل. ولكن عندنا أعضاء فى مجلس الشيوخ لا يرون ذلك. إنهم يريدون إغلاق الباب أمام الاختيارات الأولى لعالم المفكرين وبذلك نعيدهم إلى بلادهم ليتمكنوا من منافستنا من هناك. إن هناك أربعة من بين نواب الرئيس العشرة فى شركتى من المهاجرين. وهناك نحو 35 فى المائة من المهندسين لدى من المهاجرين. نائب الرئيس لشئون البحوث عندى ـ ذلك الرجل الذى يصمم أكثر شذرات الكمبيوتر تطوراً عندى ـ من كوبا». فهل ترغب فى أن تعتمد الوظائف فى بلادك على المهندسين الذين تخرجهم بلادك فقط، أم هل ترغب فى أن تكون لديك الفرصة للحصول على أفضل 10 فى المائة من جميع المهندسين فى أنحاء العالم؟ إن أمريكا هى الدولة الوحيدة التى لديها الفرصة اليوم. أما اليابان وسويسرا وألمانيا ـ فليست لديها تاريخ حقيقى للهجرة، وهذا سوف يكون خسارة كبيرة لهم .

وقد يصمم مهندسنا الجغرافى بلا شك دولة، لها نظام سياسى فيدرالى ديمقراطى مرن يسمح بقدر كبير من لا مركزية اتخاذ القرار السياسى التى تمكن الأقاليم والمحليات المختلفة من التكيف مع الاتجاهات العالمية بدون انتظار تحرك المركز. حقاً إن وجود نظام فيدرالى ـ به خمسون ولاية لديها جميعاً الحافز للتنافس والتجربة من أجل العثور على حلول لمشكلات التعليم والرعاية الاجتماعية والرعاية الصحية المتشابكة ـ يعتبر رصيداً هائلاً فى عصر العولمة، حين يمكن أن تكون هذه المشكلات شديدة التعقيد ويندر أن تحصل لها على الحل الصحيح بدون إجراء تجارب عدة مرات.

وقد يصمم مهندسنا الجغرافى بلا شك دولة يوجد بها أكثر أسواق العمل مرونة فى العالم ـ دولة تملك سوقاً للعمل تمكن العمال من التحرك بسهولة من منطقة اقتصادية إلى أخرى، وسوقاً للعمل تمكن أصحاب الأعمال من توظيف العمال والاستغناء عنهم بسهولة نسبية. إذ كلما سهلت عملية الاستغناء عن العمال، زاد حافز أصحاب الأعمال على توظيفهم. قارن بين ملايين الوظائف التى ألغيت فى أمريكا فى التسعينيات والملايين الكثيرة الأخرى من الوظائف التى أنشئت فى أمريكا فى التسعينيات، مع دوران العمل الثابت تقريباً فى أوروبا الغربية. ففى أمريكا، يمكن للمرء أن يفقد وظيفته فى ولاية مين فى يوم، وأن يحصل فى اليوم التالى على وظيفة أخرى، إذا توافرت فى سان دييجو. ولكن إذا فقد المرء وظيفته فى طوكيو فى يوم فلا أنصحه بالبحث عن وظيفة أخرى فى سول فى اليوم التالى. وإذا فقد المرء وظيفته فى ميونيخ فى يوم، فلن يكون من السهل عليه الحصول على وظيفة أخرى فى ميلانو فى اليوم التالى، حتى مع وجود العملة الأوروبية الموحدة والسوق الموحدة.

وقد يصمم مهندسنا الجغرافى دولة تعتبر فيها اتحادات المنتجين التى تحميها الحكومة شيئاً كريهاً، ومن ثم يتعين على كل شركة وبنك أن يكافح ويقف على قدميه معتمداً على نفسه فقط. ولن يسمح بوجود الاحتكارات. وسوف يكون ذلك

مهماً. وحتى عندما تصبح الشركة الأمريكية شديدة النجاح، ومثل الدرة العالمية كشركة مايكروسوفت مثلاً، فما زال عليها أن تخضع لاستجواب مدعى مكافحة الاحتكار بوزارة العدل الذى لا يتعدى مرتبه 75 ألف دولار سنوياً.

وقد يصمم مهندسنا الجغرافى دولة تتحمل وجود غريبى الأطوار، مثل ذلك الرجل الذى يعقص شعره على صورة ذيل حصان، أو تلك الفتاة التى تضع قرطاً فى أنفها، ولكنهما مع ذلك يتمتعان بعبقرية حسابية أو ببراعة فى كتابة البرمجيات. أمريكا هى الدولة التى فى اللحظة التى يقف فيها شخص ما ليقول، «هذا مستحيل» يدخل آخر من الباب ليعلن، «لقد فعلتها». يقول أفرام ميللر نائب رئيس شركة إنتل: «لم يدرك اليابانيون ذلك، لأنهم يركزون على التجانس والإنتاج النمطى. وعندما كان اليابانيون يشيدون صرحاً صناعياً من كل الأشياء المتماثلة فإنهم كانوا خبراء العالم فيها، وقد أخطأنا واعتقدنا أن ذلك نوع من العبقرية الخاصة. ولكن العالم اليوم لم يعد يرغب فى كثير من الأشياء المتماثلة، وفى عالم يريد فيه الجميع شيئاً مختلفاً ـ وتستطيع التكنولوچيا أن تقدم لهم الشىء المهيأ تماماً لاحتياجاتهم ومواصفاتهم الخاصة ـ فإن أمريكا تتمتع بميزة حقيقية».

وقد يصمم مهندسنا الجغرافى دولة أنجز فيها قطاع الشركات فى منتصف التسعينيات ـ على عكس هذا القطاع فى أوروبا أو اليابان ـ معظم عمليات خفض الأحجام، والخصخصة، ومد الشبكات، وخفض الضوابط، وإعادة الهندسة، والتحديث ورفع الكفاءة وإعادة الهيكلة اللازمة للتكيف الكامل مع ديموقراطيات التمويل والتكنولوچيا والمعلومات واستغلالها على أكمل وجه، واجتناب إصابة شذرات الكمبيوتر الدقيقة بمرض نقص المناعة. وتماماً مثلما فازت أمريكا فى سباق الفضاء فإنها تفوز الآن فى سباق السايبر سبيس (cyberspace تكنولوچيات الفضاء المعلوماتى). فالشركات الأمريكية تنفق على تكنولوچيا المعلومات نسبة من دخل الفرد تفوق ما تنفقه أى دولة غيرها فى أنحاء العالم.

وقد يصمم أيضاً دولة لديها تقاليد عميقة الجذور فى إقامة المشروعات الخاصة، ولديها نظام الضرائب الذى يسمح للمستثمر أو المبتكر الناجح بالحصول على نصيب كبير من مكاسبه الرأسمالية، ومن ثم فهناك حافز مستمر دائماً لتحقيق الثراء الهائل. ففى بلدنا النموذجى هذا، لا يعتبر هوراشيو آلجر شخصية أسطورية وإنما قد يكون أحياناً أقرب جار لك تصادف فقط أنه عمل مهندساً فى شركة إنتل أو أمريكا أون لاين عندما كانتا فى بدايتهما وانتهى به الحال إلى الحصول على جزء من مرتبه على صورة أسهم فأصبحت قيمتها الآن 10 ملايين دولار.

وقد يصمم مهندسنا الجغرافى بلا شك دولة ما زال بها الكثير من الأماكن والمدن الصغيرة ذات البيئة الجذابة المفتوحة على اتساعها لكى تجذب عمال المعرفة. ذلك لأنه بفضل الإنترنت وآلات الفاكس وتوصيل الطرود فى صباح اليوم التالى، أصبح باستطاعة شركات التكنولوچيا المتقدمة وعمال المعرفة الهروب من المراكز الحضرية والاستقرار فى أى مكان يرغبون فيه تقريباً. ولهذا قد يكون وجود الكثير من الوديان الخضراء المورقة التى لا تبعد كثيراً عن المحيطات أو الجبال رصيداً حقيقياً. ولهذا السبب تشهد اليوم ولايات مثل إيداهو، وواشنطن، وأوريجون، ومينيسوتا، ونورث كارولينا ازدهاراً فى قطاعات التكنولوچيا المتقدمة.

وقد يصمم أيضاً دولة تقدر التدفق الحر للمعلومات إلى حد الدفاع عن حقوق أسوأ الإباحيين وأشد العنصريين إثارة للفتن فى أن يؤدوا أعمالهم. فقد يكون ذلك رصيداً. لأنه فى عالم سوف تتدفق فيه المعلومات، والمعرفة، والسلع والخدمات بسرعة متزايدة عبر العالم السريع أو عن طريق الفضاء المعلوماتى (السايبر سبيس)، فقد تكون هناك ميزة حقيقية لتلك الدول التى تشعر بالارتياح فى مثل هذا الانفتاح وذلك التنافر وتلك الفوضى التى تصاحبه أحياناً، تلك الدول التى تشعر بالارتياح فى جو التنافس على أساس التخيل، وليس من خلف أسوار الحماية. وقد حافظت أمريكا على

ثقافة الانفتاح تلك منذ بداية تأسيسها، عن طريق مرسوم حرية الحصول على المعلومات الذى لا يسمح للحكومة بالاحتفاظ بالأسرار لفترة طويلة.

والأهم من ذلك أن مهندسنا الجغرافى قد يصمم دولة تستطيع الشركات المتعددة الجنسية وصغار رجال الأعمال فيها التخطيط بمزيد من الارتياح لمشروعات كبيرة والتخطيط على أساس عالمى، وتتفوق الآن فى كل نشاط سريع، وخفيف، ومتصل بشبكات، ومكثف للمعرفة. إن أمريكا تتفوق الآن فى مجالات تصميم البرمجيات، والحواسب، والتصميم عن طريق الإنترنت، والتسويق عن طريق الإنترنت، وأعمال البنوك التجارية، والبريد الإلكترونى، والتأمين، والمشتقات، والهندسة الوراثية، والذكاء الاصطناعى، وأعمال البنوك الاستثمارية، والرعاية الصحية نبيلة الأهداف، والتعليم الأعلى مستوى، وتسليم الطرود صباح اليوم التالى، والفنادق، والاستشارات، والأطعمة السريعة، والإعلان، والتكنولوجيا الحيوية، ووسائل الإعلام، ووسائل الترفيه، وإدارة المخلفات، والخدمات المالية، والصناعات البيئية، والاتصالات. إنه عالم ما بعد الصناعة، وأمريكا اليوم تجيد كل شىء فيما بعد الصناعة.

* * *

فى عالم الفائز فيه يحصد كل شىء فإن أمريكا، بلا شك، حتى الآن على الأقل، لديها نظام يحصل فيه الفائز على الكثير. وذلك يجعل أمريكا دولة عظمى فريدة. فهى تتفوق فى مصادر القوة التقليدية. أى أن لديها جيشاً عاملاً ضخماً، مزوداً بعدد من حاملات الطائرات، والمقاتلات النفاثة المتطورة، وطائرات النقل، والأسلحة النووية يزيد على ما كان لديها فى أى وقت مضى، بحيث تستطيع استعراض القوة بدرجة تفوق أى دولة أخرى فى العالم. بل وأشد عمقاً أيضاً. إن امتلاك أمريكا كل من قاذفات القنابل الشبح طويلة المدى ب 2 (B-2) ومقاتلات الشبح قصيرة المدى إف 22 (F-22)

التى يجرى تطويرها الآن يعنى أن طائرات سلاح الطيران الأمريكى تستطيع اختراق نظام الدفاع الجوى لأى دولة أخرى تقريباً بدون اكتشاف وجودها. وفى الوقت نفسه، وكما أسهبنا آنفا، تتفوق أمريكا فى كل مقاييس القوة الجديدة فى حقبة العولمة.

ولكن تذكر هذا: قبل عقد واحد من السنين بدا أن الآسيويين والأوروبيين لهم اليد العليا، وكان أفول نجم أمريكا هو كل البدعة السائدة. والآن، وحسبما يقول جون نوفر، المحلل الأمريكى بمعهد بحوث ميتسوى مارين فى طوكيو، لصحيفة ***نيويورك تايمز***، أصبح كل شىء معكوساً فجأة: «اليابانيون لا يرون الضوء فى آخر النفق، والأمريكيون لا يرون المنحدر الصخرى المطل على البحر الذى قد يسيرون إليه».

ومع ذلك، فإن هذا لا يعنى أنه لا يوجد بالفعل منحدرات صخرية. لقد كانت موجودة دائماً. أيا كانت الميزات التنافسية الأساسية التى تتمتع بها أمريكا فى هذه اللحظة من التاريخ، فما زال عليها تصحيح الأساسيات حتى يتسنى لها المنافسة. وما زال عليها أن تتأكد من التحسن المطرد فى الإنتاجية، والقدرة على إنتاج سلع وخدمات بأقل وأقل التكاليف بحيث يمكن رفع الأجور بدون حدوث تضخم. وفى هذه اللحظة، قد تكون الخصوم فى اليابان أكبر من الأصول فى هذه الحقبة من العولمة، ولكن اليابان ما زالت صانعاً بارعاً فى كثير من الصناعات الأساسية، إذ لديها دائماً معدل مرتفع من المدخرات المفيدة وشعب قادر على العمل الشاق. وما زالت اليابان أيضاً هى آلة الابتكار فى مجالات مثل التصنيع النهائى عالى الجودة، وإدارة المخزون والإلكترونيات. وهناك كثيرون من رجال الأعمال اليابانيين الجياد الذين يختنقون من نظام بلادهم. ولذلك فإن تعثرات الاقتصاد الكلى التى حدثت فى اليابان فى التسعينيات لم تقض عليها، وإنما تطلبت منها فقط بعض التعديل. ولن يمثل اليابانيون والأوروبيون الغربيون تحدياً لأمريكا طالما ظلوا متمسكين بنظمهم المتصلبة التى تأخذ بأسلوب توفير الحماية الاجتماعية، التى وإن كانت تجعل الرأسمالية

أقل قسوة، إلا أنها تجعلها أقل إبداعاً وإثراءً. ولكن كلما ابتعدت أمريكا فى طريق هذه الحقبة من العولمة، زاد توقعى أن تسعى هذه الدول إلى أن تكون انعكاساً لأمريكا وأن تحاول محاكاتها. وسوف يصاحب هذا التعديل المحتوم آلام هائلة، ولكن هذه الدول سوف تضطر إلى فرض هذا التعديل للحفاظ على كل ما يجعلها تواصل مستوياتها الحالية للمعيشة.

ولا يعنى ذلك أن تلك المجتمعات لا تفرز العقليات التى تتناسب مع هذه الحقبة فى إقامة المشروعات. فالعقول الفرنسية تعمل تماماً مثل العقول الأمريكية. ولكن التساؤل الوحيد هو، ما هى الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى تسمح لهذه العقول بالازدهار والنمو. لقد كان السبب فى اندفاع الكثيرين من مهندسى البرمجيات الفرنسيين نحو وادى السيليكون هو أنهم ببساطة لا يشعرون بأن باستطاعتهم الازدهار فى ظل النظام السائد اليوم فى فرنسا. ففى 21 مارس1998، نشرت صحيفة ***واشنطن بوست*** تقريراً من باريس عن استنزاف العقول من فرنسا إلى وادى السيليكون بسبب المرونة التى يوفرها النظام الأمريكى، جاء فيه: إن رضا مالك زاده، البالغ من العمر أربعة وعشرين عاماً وخريج إحدى أكثر كليات الأعمال الفرنسية احتراماً انتقل إلى الولايات المتحدة، وتنقل بين ثلاث وظائف على مدى ثلاث سنوات، ثم أصبح مديراً لشركة أمريكية لعمليات نظم الشبكات، هى شركة سوفتواى إنترناشيونال، فى سان فرانسيسكو. قال زاده: «لم أستطع أن أفعل فى فرنسا ما فعلته هنا. ففى فرنسا، تظل حتى بعد أن تبلغ الخمسين من عمرك توصف بأنك خريج الكلية التى كنت تذهب إليها. أما هنا، فلا يهتم الناس إلا بما تستطيع أن تقوم به، وليس بكم تبلغ من العمر أو بالكلية التى ذهبت إليها قبل خمسة عشر عاماً». لقد أصبح الآن واحداً من بين40 ألف مواطن فرنسى يعيشون فى نورثرن كاليفورنيا. ما عليك إلا تغيير الظروف فى

فرنسا، وسوف يعود، بلا شك، الكثيرون منهم، وسوف يقل عدد القادمين إلى وادى السيليكون.

كذلك يتعين على أمريكا استغلال هذه اللحظة التى تتمتع فيها بقليل من الأرصدة الإضافية، للتعامل مع ما لديها من خصوم فعلية: الجريمة التى تنتشر فى الأحياء الشعبية فى مدنها، والنقص المجنون فى السيطرة على امتلاك الأسلحة، واتساع الفجوة فى الدخول، والمدارس العامة المفتقرة إلى التمويل الكافى، وتقاليد فى التقاضى يمكن أن توهن أى إنسان بدءاً من صغار رجال الأعمال وانتهاءً بالشركات الكبرى، ونظام للتأمينات الاجتماعية يفتقر إلى التمويل الكافى، وتقاليد البطاقة الائتمانية للمستهلك التى تشجع الكثيرين من الناس على الإنفاق بصورة تتجاوز قدراتهم، وتؤدى إلى تراكم جبل من ديون المستهلك التى قد تكون خطراً حقيقياً، فى حالة الكساد، على الهيكل المالى بأسره، ونظام سياسى يزداد فساداً بسبب تراخى قوانين تمويل الحملات الانتخابية. وقد يصبح التصدى لهذه المشكلات فى متناول اليد حقاً فى حقبة العولمة.

وأظل على تفاؤلى بأن أمريكا سوف تستغل ما لديها من أصول بحكمة، ولا أعتقد أننى الوحيد الذى لديه هذا الحماس المنطقى. ولكننا إذا تهاونا فإن الانهيار سيجىء حتماً بعد الازدهار مثلما يجىء الغروب بعد الشروق. وهذا هو السبب فى أننى أهتم بكلمات لارى سومرز وزير الخزانة الأمريكى الذى يقول دائماً عن أمريكا فى التسعينيات: «إن الشىء الوحيد الذى يجب أن نخاف منه هو افتقارنا إلى الخوف ذاته».